آفاق الأدب العالمي

إعداد رنا إدريس

فرنسا

روب ـ غرييه :

النجمة المذنبة !

حين يحتقر الكاتب العواطف ، والاستعارات، وعلم النفس ، بل وحتى معنى الكلمات ، ألا يوشك ان يختفي في العدم ؟

هذا هو السؤال الـذي طرحه الناقـد « هكتور بيانكيوتي » بمناسبة صـدور روايتين جديدتين للكاتب الفرنسي المعروف آلان روب ـ غرييه . وفيما يلي ترجمة لتعليقه (لو نوفيل اوبسرفاتور ، العدد ٩٢٧) :

يجرؤ المرء من جديد ، هنا وهناك ، على أن يطلق كلمات وتعابير أصبحت مدانة ، من مثل : « ضمير » و « كائن » و « نفس » . وتعود تلك النزعة الانسانية القديمة ، وقد سحبت من الخزانة ، شاحبة ، ممزقة . غير انه يظل متعذرا استبدالها ، فتعـود لتجلس بين الحكماء . وهكذا ، فان « آلان روب ـ غرييه » ، المنسجم مع نفسه ، يعود الى الاضواء بروايتين : « قاتل ملك » و « ذكريات المثلث الذهبي » . وبهذه المناسبة، تخصص مجـلة « أوبليك » عـددا خاصا لكتبـه وأعماله السينماتوغرافية .

ها قد مضى ربع قرن منذ أن نشر « روب ـ غرييه » كتاب « الماحي » ، وهو حبكة بوليسية يكون علم النفس فيها منفيا عـلى حساب السلوك ، ويكون للملاقة بين النظرة والشيء امتيازاتها . وقد لحق هـذه الرواية خمسة عشر عملا : روايات وروايات سينمائية وقصص قصيرة ونصوص نقدية وستة أفلام او سبعة .

هل علينا أن نتكل ، لكي نحصر عمله الذي أراد أن يكون مميزا ، عـلى تصريحات المؤلف النظرية ، الذي حاول من غير أن يخشى التناقضات ، أن يعطي صورة كاتب أراد أن يحطّم الاحساسات لكي تتمكن الكلمات ، وقد تحررت من قدرتها الموحية وذكرياتها الشعرية ، أن تنحصر في معناها المباشر ؟

منذ سنة ١٩٥٦ ، كان « روب ـ غرييه » قد لمس اشمئزاز أكثر النـاس وعيا ازاء الكلمـة الباطنية أو التشابهية أو السحريـة ، وامتـدح النعت البصري الوصفي الذي يكتفي بأن يقيس وأن يحدّ وأن يحدد .

كان ذلك بمثابة ادانة للاستعارة . ويمكننا القول بأنها أدانة للغة نفسها ، بل لكل اللغات . ذلك ان اللغات جميعها متكونة جزئيا مـن الاستعارات ، من الرموز

المشتركة بين جميع الرجال ذوي الثقافة الواحدة . والرغبة في افقار اللغة بحرمانها من التشبيهات التي تحتويها ، يعود بالذاكرة الى ذلك المجمع من العقلاء الذي تصوره رواية « غوليفير » لسويفت ، أولئك العقلاء الذين يدعون الى الغاء اللغة المحكية حتى لا تتلف البشرية رئتها ...

غير ان « روب ـ غرييه » يدعي ان الاشياء يجب أن تكون هنا ، يشار اليها فقط في هذا « الشيء في ذاته » ، الذي ينفي كل علاقة محسوسة مع القارىء . وهذا لم يمنعه من أن ينفي أي تقليد للواقع وأن ينظر باشمئزاز الى فكرة وصف الشيء الماثل تحت عينيه . ان الركوة التي يصورها ، يؤكد انه يتخيلها ، وان القارىء يتخيلها بدوره . وبالاجمال ، هناك ركوة الجميع وركوة كل صباح ، بالاضافة الى الركوتين المذكورتين : ان هذا مجون حقيقي للخيال ، وفي أي حال ، بطارية مطبخية مربكة !

حتما ، بالرغم من أي عمق ، وخاصة العمق النفسي ، يظل يثير في نفسه الغثيان ، يعلن « روب ـ غرييه » ، بعد أن أراد أن تكون رواياته وصفية مجردة ، بل حتى علمية ، ان الذاتية هي طابع « الرواية الجديدة » ... غير انه يتشبث بنقطة واحدة هي : « المعنى » ، هذا المعنى الذي يجب أن يستبعد من كل ابداع : « ان العدو الاكبر ، بالنسبة لي ، بل ان عدوي الوحيد الدائم هو ، بشكل عام ، المعنى » .

ان القارىء ، وان حاول ، في هذه الحالة ، أن يبقى على هامش القراءة وعلى هامش نفسه كما يدعوه « روب ـ غرييه » ، يبحث دائما عن معنى للكتاب . أن يحرر نفسه من حياته الشخصية وأن يتغلغل في عالم مختلف يثير اهتمامه لانه أقرب الى شخصيته ، أقرب الى « كيانه » في الظروف التي وضعته فيها الحياة ، تلك هي احدى متعه . اننا لا نستطيع أن نهرب من ضرورة وجود معنى لكل شيء ولا من كون الاشياء لها حد أدنى من المعنى .

ان أعمال « روب ـ غرييه » لا تفلت من ذلك ، وهي تعني فقط أن الفراغ أصبح الخلاّق الاكبر في أيامنا هذه !..

في هذا الوضع، كيف يمكن تفسير شهرة « روب ـ غرييه » العالمية ؟

ربما كان ذلك لان فرنسا تمثل دائما ظاهرة معينة في الثقافة الغربية . ذلك ان التجديد الباريسي ، الذي بفضله يكون الاهتمام بالفن أقل منه بسياسة الفن، يظل يحسب له حساب . ان التصنيف والتنظير ووضع الطوابع ، كل ذلك شغف فرنسي يعطي وهم المعرفة ويظل يجعل من باريس عاصمة هذه المملكة التي تضم مقاطعات بعيدة يوجد فيها دائما أشخاص ذوو ارادة طيبة يقلدون عاداتها وتقاليدها ، ولو بتخلف موضتين أو ثلاث . ليس ثمة أسباب أخرى لكلف الجامعات الاجنبية بأعمال «روب ـ غرييه» . انها تدرسه وتشرّحه ولكن ربما كما تشرّح نموذجا متحفيا أو أمرا مثيرا للفضول غايته تغذية اختصاصيي الادب .

من السذاجة حقا أن يرغب أحدنا بسرد كتب تتحدى الحكاية . والواقع ان رواية « قاتل ملك » التي كتبها « روب ـ غرييه » عام ١٩٤٩ ، تنتسب بالاحرى الى المنعطف « الهلوسي » للكاتب ، حيث وجد الكثيرون نزعة خارقة ، في حين انه في الواقع مجرد أسلوب مرصود لكي يشوش القارىء بواسطة الارتدادات الى الخلف، وبالمشاهد المتكررة، المكذّبة والمستعادة بروايات مختلفة .

أما بصدد رواية « ذكريات المثلث الذهبي » فان الطريقة تبقى هي نفسها ، ولكن الصور الشهوانية تتدفق ، وكذلك في أفلامه الاخيرة : أرداف في الهواء ، جزم ، ريش ، قفازات ، راهبات فاحشات ، أجساد مبتورة ...

هذا هو « ساد » في « كونسرتو مايول » ، وهناك طبعا الطموح لنضج « العلاقات السادية ـ الجنسية التي يتعهدها القصاص مع جسد روايته نفسها » ...

عندما يحتقر الكاتب الاحساسات والاستعارات وعلم النفس بل وحتى معنى الكلمات ، الا يوشك أن يختفي في العدم ؟ حتما ، ان « روب ـ غرييه » يستمر ماثلا في الكوكبة الادبية ، غير ان نوره يخبو شيئا فشيئا .

الشاعر وجارته

صدرت اخيرا للكاتبة جوسلين فرانسوا رواية بعنوان « العاشقتان » اثارت اهتمام الاوساط الادبية في فرنسا . وقد كتب بول موريل في عدد ١٣ اكتوبر الماضي من جريدة « لوموند » تحليلا لهذه الرواية نورد هنا اهم ما جاء فيه :

لم تختر جوسلين فرنسوا لروايتها الثانية الموضوع الاسهل ، بالرغم من ان الثالوث العاطفي ، امرأتان ورجل ، يعود مرارا في الساحة الادبية المعاصرة.

غير ان سيد الساحة هنا ليس الرجل . انها احدى المرأتين ، تلك التي اسمها « هي » في الرواية والتي ، برفقة « ساره » ، أطالت هذا الزواج العاشق الذي استطعنا أن نتابع تطوره في كتاب « السعادات » الذي صدر عام ١٩٧٠ . ولقد وجدنا في هذه الرواية المرأتين اللتين أحبتا احداهما الاخرى عندما كانتا فتيتين ، ووجدناهما تعودان الى شغفهما الاول بعد خيبة أمل مزدوجة سببها حب سمّي بالحب الطبيعي .

انهما تعيشان ، في كتاب « العشيقتان » ، في منزل في البروفانس اختارتا ان تحميا فيه حبا هو من الحدة والنقاء ــ احداهما كاتبة والاخرى رسامة ونحاتة ــ بحيث انه تحرر وطهّر نفسه من جميع القيود .

واذا بعنصر مخرب يظهر فجأة ، في هذا الانسجام الشهواني والعقلي في آن واحد . وكان يخشى منه أكثر وأكثر لانتمائه ، هو أيضا ، الى عالم الابداع والاحساسات والشهوات والخيال ، والذي كرستا حياتهما له .

انه شاعر ، شاعر كبير ، شاعر ذو شهرة عالمية ، ومن هنا فانه معتاد على الاحترام التفضيلي ــ على الاحترام النسائي أيضا بلا ريب .

أليس هو ، الشاعر ، مدفوعا أن يرى ، في هذا الاهتمام الذي تحمله اليه « هي » ، الشاعرة الفتاة الصديقة والجارة ــ الجارة في الموقع ولكن أيضا في القلب ــ أليس مدفوعا أن يرى انتصارا اضافيا يبلغ في ضرورته انه قد يكون الانتصار الاخير ، ومن جدارته انه يحصل في ساحة فريدة ، محظورة تقريبا ، ان لم تكن معادية ؟

ولكن هل هو متأكد من ان هذه الصداقة التي تكنها له المرأة الصبية ، في زياراتها اليومية تقريبا ، تلك الفتنة ، تلك الجاذبية ، ذلك التعطش للحضور ، للاخذ وللتفهم ، تلك الصداقة ليست سوى ثمرة احساس فكري مجرد ، لا نصيب منه للجسد ؟

نحن نحسّ مع الشاعر ان الحدود حائرة هشة ، وان تفاحة ما ، نسمة ما ، طرفا ما يكفي لتجاوز هذه الحدود .

وقد قام سوء تفاهم بين المرأتين في باديء الامر ، حيث ان احداهما ترى بقلق ابكم ، كيف تنسج تلك العلاقات الغريبة عن حبها ، ثم قام الخلاف بينها « هي » وبين الرجل : فبينما حب الانتصار يتوتر فيما الامل يصغر ، يرتكب هذا الآخر أعمالا خرقاء تعتبر ، في الاستراتيجية المجردة العاطفية ، أسوأ من الاخطاء ، فتتراجع المرأة كلما تقدم هو .

وذلك لان الحب الآخر ، الحقيقي ، الذي يوحّد المرأتين في السراء والضراء ، في الليل وفي البهجة ، في الحياة والشأن اليومي ، ذلك الحب هو الاقوى . وفي أتونها الطبيعي ، تذبل النار الاصطناعية ، النار الخيالية التي يغذيها الشاعر ، تذبلّ وتبهت ، بلْ هي احيانا تنحط في شرارات قصيرة ملهبة ومنتقمة ، تاركة وراءها كومة صغيرة من الرماد الرمادي .

لم يكن ذلك سوى حلم فصلٍ من فصول الصيف.

أن يكون الامر يتناول شاعرا كبيرا يستطيع كلٌ امرىء أن يتلهى باعطائه اسما ، ذلك لا يزيد ولا ينقص شيئا الى هذه الرواية الجميلة . وكذلك السمة الماجنة التي سنكون مندفعين لان نلصقها بهذه الرواية يجب أن لا تنسينا مميزاتها الفريدة .

في هذه المحاولة المحفوفة بالمخاطر ، وهي أن يوضع على المسرح اشخاص غير مألوفين ، بلْ علاوة على ذلك كتّاب ، نجحت جوسلين فرنسوا أن تكون على التساوي شاملة ومحسوسة ، جلية وتلميحية ، دقيقة ومتروية .

ان الصفحات التي خصصتها للشاعر والتي توصلت ألا تكون كثيرة المدح ولا مفرطة الحقد ، تلك الصفحات تكوّن صورة غنية بالالوان .

وفي هذا الصدد ، هذا النموذج ــ ان كان هناك من نموذج ــ يمكن أن يعتبر نفسه ناجحا . ان فعل الحب ، هذا الذي توسّله الشاعر عبثا ، تكمله الرواية نفسها بفعل وجودها . ان ما تمنعه عنه الحياة ، يمنحه اياه الادب ، وذلك بفضل كتابة تحسن ، بصرف النظر عن التكلفات النادرة ، أن تبقى مألوفة في قلب الغنائية، وأن تقرن الملاحظة الحادة بالصورة الصبورة ، وان تبدع في وصف ساعات البروفانس اليومية ، المخدرة بالشمس والمحمومة بالشغف .